

نحو منظور عالمي لدراسة الأدب العربي



عبد النبي اصطيف

القديم، واستعمالها من جانب شعوب وأمم عديدة لغة للحياة اليومية، والتجارة (أنه كان بمقدور تجار القرن السابع عشر بالتمكن من لغة واحدة، هي العربية، الارتحال دون مساعدة مترجم من مضيق جبل طارق إلى مضيق مالقا، الذي يحدد الممر من المحيط الهندي إلى المحيط الهادئ)، والأهم من ذلك، لغة للمعرفة والعلم والأدب، تحول الأدب العربي بانتشاره في مختلف بقاع هذا العالم والتنوع العرقي لمنتجاته وترجمته إلى لغات البلدان المجاورة إلى أدب عولمي.

ولما كانت القاعدة الذهبية في الدرس النقدي للأدب، هي أن النص وحده ما يفرض قواعد درسه، فقد كان من الطبيعي أن يدعو المرء إلى دراسة الأدب العربي من منظور عولمي، خاصة وأن تفاعله مع آداب الأمم المجاورة قد تنامي بتنامي العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطى وعصر النهضة وتوسعها. ذلك أنه ومع حلول عصر الاكتشاف والاستكشاف، الذي امتد نحواً من ثلاثة قرون، سعى فيها البحارة الأوروبيون، بإبحارهم حول العالم، إلى البحث عن طرق تجارة جديدة تضمن لهم الحصول على بضائع الشرق وبخاصة توابل الهند، وبهاراتها، ومنتجات الصين وجنوب شرقي آسيا، وما تبعه من استعمار غربي شمل معظم بلدان الشرق والجنوب، ازداد هذا التفاعل وتوسع وتعمق مع آداب العالم القريب والبعيد، وأفضى في الوقت نفسه إلى اكتشاف قارات جديدة (أمريكا وأستراليا)؛ وطرق ملاحية جديدة، لا سيما طريق رأس الرجاء الصالح؛ ونشوء الإمبراطوريات وتوسع مناطق سيطرتها؛ وتنامي المعرفة

هل الأدب العربي أدب قومي؟ ربما يزعم بعضهم أنه أدب قومي منذ العصر الجاهلي، فقد كان في ذلك العصر وإلى حد بعيد رهين شبه الجزيرة العربية، وتخومها الشمالية، والشرقية، والجنوبية الغربية. صحيح أنه كان يتفاعل فيها مع آداب تلك الشعوب التي كانت تتحدث بغير العربية، ولكن هذا التفاعل لم يكن يتعدى هذه التخوم، ولم يكن عميقاً، ولا واسعاً، وبالتأكيد لم يكن شاملاً. ومع ذلك فإن فسح هذا التفاعل يمكن أن تُدخله في دائرة الدرس المقارن، الذي يمكن أن يتدبر ما خلفه هذا التفاعل في أدب كل من طرفيه من تغيير في مبناه وفي معناه، وربما في رؤيته للعالم من حوله.

غير أن تغييراً جذرياً، وإن كان متدرجاً، قد طرأ على هذا الأدب مع انطلاقة:

الفتوحات العربية شمالاً وشرقاً وغرباً؛ وانتشار الدين الحنيف بداية في تخوم شبه الجزيرة العربية وشمالها، ثم في مختلف أمصار العالم القديم ما بين غربي الصين وجنوبي فرنسا، مروراً بأواسط آسيا، وشمال إفريقيا؛ وترسيخ العربية معه لغة للعبادة والتشريع، ولغة للحياة اليومية، ثم لغة للأدب الشفوي والكتابي بين سكان هذه المناطق الذين تخلوا عن لغاتهم الوطنية وتبنوا لغة الدين الحنيف وأتقنوها، بل برعوا فيها، حتى إن بعضهم ناهس الناطقين بها من أمثال بشار بن برد، وعبدالله بن المقفع وغيرهما، وأكثر من هذا فإن عدداً من علماء هذه المناطق قعدوا اللغة العربية، استناداً إلى ما أخذوه عن علماء اللغة العرب (سيبويه والكتاب).

ونتيجة انتشار العربية الواسع في العالم

تغير جذري
متدرج طرأ على
الأدب العربي مع
انتشار الفتوحات
والدين واللغة

صارت اللغة العربية مرجعية علمية معرفية للأدب العربي

أصبحت اللغة واسعة الانتشار بين بلدان المحيطين الهندي والهادي

تحول الأدب العربي بانتشاره في مختلف بقاع العالم إلى أدب عالمي

من منظور عولمي يتضمن مقارنة مقارنة تعنى بجودة التفاعل ما بين الأدب العربي والآداب المجاورة؛ ومقارنة ما بعد استعمارية تأخذ بالحسبان علاقات القوة ما بين الأقوام المنتجة لهذه الآداب؛ ومقارنة تأخذ بالحسبان كذلك ما ينطوي عليه هذا الأدب من الهجئة الناجمة عن العلاقات الحميمة ما بين الأدب العربي والآداب الأخرى، والتي كانت ماثلة على نحو بين في نفوس منتجيه من غير العرب بشكل خاص، ومنتجيه العرب بشكل عام.

وإغفال هذا المنظور أو تجاهله بسبب دواع سياسية أو أيديولوجية أو عنصرية مُناف لأبسط شروط البحث العلمي، لأنه يفغل طبيعة هذا الأدب ووظيفته وحدوده، ويتجاهل تفاعله الصريح والمضمر مع اللغات والآداب والثقافات الأخرى، وبخاصة لغات وآداب وثقافات الشعوب الإسلامية، التي يأتي الاهتمام بها متأخراً بسبب عقدة الغرب الأقوى والأهم والأغنى ومعقد الآمال، وخاتمة المال. وكذلك فإنه يفضي الطرف عن بعده الإنساني الذي بات موضع اهتمام العالم كله، وحسب المرء أن يشير في هذا المقام ما ينشر باللغات العالمية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية) عن هذه الآداب من ترجمات ودراسات، والإحاطة بها بحاجة إلى فريق، بل عدة فرق من المتخصصين بالدراسات الاستشراقية والعربية.

والواقع أن دراسة الأدب العربي من منظور عولمي تحمل في طياتها الكثير من الفوائد، ليس فقط لقراء هذا الأدب وملتقيه بالعربية واللغات الأخرى، والتي ربما كان من أبرزها إعادة النظر في مفهوم الأدب بوصفه أحد أبرز الفنون الجميلة من حيث طبيعته، ووظيفته، وحدوده؛ وإعادة النظر في المقاربات المختلفة للدرس المقارن للأدب، وزعزعة هيمنة الأنموذج الغربي في هذا الدرس؛ وإعادة النظر في تاريخ العلاقات العبر ثقافية في العالم القديم، والعالم الحديث، ولا سيما العصور الوسطى والعلاقات متعددة المستويات التي سادت بلدان البحر المتوسط وقامت بين شعوبه؛ والانتقادات إلى ما أفضت إليه هذه العلاقات من هجئة أغنت الثقافات القومية، والمحلية، والقارية، وأسهمت من ثم في الارتقاء بمختلف وجوه الحضارة الإنسانية.

الجغرافية؛ وتقدم صناعي وتقني هائل، ولكنه أدى كذلك إلى تدمير المجتمعات التقليدية في البلدان المستعمرة.

لما كان الأدب العربي منذ نشأته في شبه الجزيرة العربية على تواصل متفاوت مع لغات تخوم الجزيرة وآدابها في الجنوب الشرقي، وفي الشمال الغربي، وفي الشمال، فقد كان من الطبيعي لدارسه أن ينظر إلى هذا التواصل على أنه لقاء بين «الأنا» العرب ولغتهم وأدبهم وثقافتهم و«الأخر» الذي يشمل الأبحاش ولغتهم وأدبهم وثقافتهم في الجنوب، والفرس ولغتهم وأدبهم وثقافتهم في الشمال الشرقي، والشرق عامة. وسكان بلاد الشام ولغاتهم التي ضمت مجموعة من اللغات (الأرامية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية) وآدابها وثقافتها، فضلاً عن الأوغاريتية في ساحلها الغربي. ومن الطبيعي أن ينطوي اللقاء على درجة من التعارف، يفضي إلى إعادة كل من الأنا والأخر النظر في مختلف وجوه حياته، ويفكر فيما يستمد من الطرف الآخر في مسعاها للارتقاء بها وتطويرها، على نحو يلبي ما يستجد من حاجات في مجتمعه، وما يتسق مع ما يملكه هذا المجتمع من إمكانيات.

لذا فقد بات من الضروري دراسة هذا الأدب دراسة مقارنة تتدبر وجوه التفاعل بين الأدب العربي والآداب الأخرى، التي كانت في معظمها أقرب إلى الآداب القومية الخاصة بأقوام وشعوب منتجها. وكما تقدم فإن انتشار الإسلام المشفوع بانتشار العربية في البلدان المفتوحة في مختلف أرجاء العالم القديم، أفضى إلى تحوُّل الأدب العربي من أدب شبه قومي إلى أدب عولمي ينتجه العرب وغير العرب، بأداة متفاعلة على نحو حميمي مع اللغات والآداب والثقافات الأخرى، ويخاطب مجتمعات كوزموبوليتينية (تضم مزيجاً من الشعوب والأمم التي انضوت تحت راية الدين الجديد، أو التي كانت تسكن في جوار العالم الإسلامي)، ويعكس رؤية للعالم مغايرة تماماً للرؤية العربية القديمة التي كانت محكومة ببيئة شبه الجزيرة العربية وقيمها وأعرافها ومعتقداتها وثقافتها المادية، واللامادية.

ولما بات الأدب العربي أدباً عولمياً متجاوزاً للحدود السياسية واللغوية والعرقية (ويليك)، فقد أصبح من الضروري النظر إليه